السياق والتواصل اللّساني بين دِلَالَتَيْ العبارة والإشارة

Context and Oral Communication between Expression and reference

خميسي زويدي*
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1 (الجزائر)
khemissizouidi@gmail.com

مهدي مشتة
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1 (الجزائر)
mahdi.mechta@umc.edu.dz

تاريخ الارسال:23-01-2022	تاريخ التقييم:22-05-2022	تاريخ القبول: 15- 06- 2022

الملخص:

ينظر هذا البحث في قضية تداولية الفعل الكلامي، وتحقيقه لفاعليته التواصلية من الفهم والإفهام، وهو أمرٌ يحتاجُ من المتكلّمِ البليغِ فراسةً ونباهةً في اختيار قنواتِ اتّصالهِ التي يرومهَا إفادةً لمقاصده الكلاميةِ تلك. وما يسوقه لنا الجاحظ قديمًا في حديثهِ عن مفهومِ البيانِ وآلاتهِ، أو أصنافِ الدلالةِ على المعاني، اللّفظيةُ منها وغير اللّفظيةِ، السياقيةُ المقاليةُ منها والحاليةُ، أو العبارةُ منها والإشارةُ، حديثٌ بلاغيٌ مُعْجِبٌ، وأنموذجٌ تواصليٌ فَذٌّ. وهذا ما يرومه هذا البحث هنا هدفًا له من النظر والتحقيق.

مؤكّدًا امتلاك الجاحظ لِمَعَالِمِ تأسيسٍ للنظرية التواصلية، تتماهى وتتماشى في كثيرٍ من جوانبها التّفصيلية مع ما وصل إليه الدّرس اللّساني والإعلامي الحديث في درسها. وأنّ له فضل سبقٍ وريادةٍ في درسٍ مثل هذه القضايا. ناهيكَ عن جليل الدّور الذي أثبته للإشارة – كقرينةٍ سياقية حاليةٍ- في تحقيق فاعلية الفعل التواصلي.

كلمات مفتاحية: التواصل؛ الدلالة؛ التداولية؛ سياق الحال؛ الجاحظ.

Abstract :

This research investigates the issue of speech act pragmatics and the achievement of its communicative effectiveness including understanding and making others understand. Thus, the eloquent speaker needs to be insightful and attentive in choosing his communication channels that convey the intentions of what he utters. What Al-Jahiz said about the rhetoric and its devices or the kinds of signifiers, verbal vs. non-verbal, performatives vs. constatives, and expressive vs.

referential is indeed a rhetorical outstanding discussion and a genuine communicative model that merits delving into it and probing its tenets.

It has been asserted that Al-Jahiz has a foundation for the communicative theory establishment, which, in many of its detailed aspects, is consistent with the findings of the modern linguistic and informative lesson. He had the pioneering credit in studying such issues, not to mention the role he has played to refer to the context of situation in achieving the effectiveness of the communicative act.

Keywords:Communication ; Semantic ; Pragmatics ; Context of Situation ; Al-Jahiz.

*المؤلف المراسل:

1.مقدمة:

اللّغة أصواتٌ يُعَبِّرُ بها كلّ قومٍ عن أغراضهم، بموجز هذه العبارة اجتمع ابن جنّي حَدَّ اللّغة طبيعةً ووظيفةً، وغايةً من الدّرس هي البيانُ إصابةً للفهمِ والإفهامِ. وتحقيقهُ البلاغي حدًّا وآلةً، هو كشفٌ أساسٌ عن تمثّلاتِ بُعدِ الدلالة فيه بلاغيًا، وللجاحظ منه في مُصَنَّفَيْهِ "الحيوان"و"البيان والتّبيين" خاصّةً حَظٌّ وافرٌ، وسَبْقٌ أحقُّ في هذا البيانِ بالتِّبيَانِ، وأساسًا في متعلّقِهِ -موصولاً ومفصّلاً- ودرسَ التواصلِ اللّساني الحديث فيهِ، أَلَةً أو قناةً لفظيةً وغير لفظيةٍ دالةً بذاتها ووظيفتها على مكنوناتِ المعاني نحوًا من "اللّفظِ" و"الخَطِّ"و"الإشارة" و"العقدِ"حينًا، وأُخرى هي ربّمَا دوالٌ استدلاليةٌ في ذواتها كمثلِ "الحَالِ" التي تُسمَّى "نِصبَةً".

غير أنّ الأمرَ المُعجِبَ حَقًّا في هذا التّصنيفِ، هو تلك القدرةُ الفَذَّةُ للمصنِّفِ على ذلك الارتسامِ الدّقيقِ لِثُلَّةِ معالِمها الأساسِ من"التَمَايُزِ" و"التَكَامُلِ" و"المُنَاسَبَةِ"، وهي المَعَالِمُ المفاهيميةُ والمعرفيةُ التي لَطَالَمَا استَدعَتْ انتباهَ روّادِ البحث التواصلي الحديث لسانيًّا وإعلاميًا، واستَرعَتْ متزايدًا من عنايتهم وبالغًا من اهتماماتهم لِتحقيقها، وبخاصّةٍ في ظِلِّ انتشارِ مفاهيم "العولمةِ" في عصرنا الحديث، والتي أَحَالَتْ العالَمَ قريةً صغيرةً تَتمازجُ فيها الثقافاتُ اجتماعيًا، وتُتَبَادَلُ فيها الآراءُ والمعارفُ عِلميًا.

وهذا ما يجعلُ من اكتسابِ مهاراتِ التواصلِ الفعّالِ، وبخاصّةً منها الاختيارُ الأنسبُ والموفَّقُ للقناة التواصليةِ، ضرورةً تواصليةً مُلِحَّةً، وأمرًا بالغَ الأهميّةِ للمتكلّمِ البليغِ والحَذِقِ المُتَفَرّسِ، لسانيًّا واجتماعيًا لإفادةِ مقاصدِهِ الكلاميةِ معرفيًا واجتماعيًا، ولنا في "قنواتِ التواصل الاجتماعي" الحديثةِ خيرُ مَثَلٍ وبرهانٍ، ومن قبلُ ريادةٌ متقدّمةٌ من بَيَانِ وتِبيَانِ الجاحظ تشهدُ.

وتمثّل هذه الحقيقة اللّسانية الاجتماعية التواصلية منتهى الغاية التي تتهادى هذه الدراسة مبلغها، متسائلة عن الدّور والأثر الدلالي والتداولي الذي يلعبه ويؤدّيه السياق - بِبُعدَيْهِ اللّفظي المقالي (العبارة) والحالي (الإشاري)- لتحقّق أصولها النظرية وتمثّلاتها العملية في فكر الجاحظ البلاغي، انطلاقًا من متصوّراته لمفهوم "البيان".

2.البَيَانُ" بلاغيًا: الحَدُّ والغايةُ:

1.2 البَيَانُ" بلاغيًا: الحَدُّ:

الحديث بلاغيًا عن فكرة الدلالة، هو حديثٌ في جوهره عن ظاهرة "البيان" التي إليها -مقصدًا- سَوقُ علوم اللّغةِ أجمعُ، ومنها البلاغة بمتعدِّدِ فنونها وأفنانها، إذ من «الظَّاهِرِ البَيِّنِ أنّ مادةَ علومِ البلاغةِ من أَلِفِهَا إلى يَائِهَا مُستَخرَجَةٌ من طرائقِ العربيةِ في الإبانةِ عن المعاني، فالتّقديمُ والتّأخيرُ في البلاغة وَاقِعَانِ في البيانِ كُلِّهِ، ومباحثُ التّعريفِ والتّنكيرِ في البلاغةِ مباحثُ ضروريةٌ ... كُلُّ ذلك لم يُولد في البلاغة، وإنّما هو من طرائقِ العربيةِ في الإبانةِ، كان وما يزالُ، وسيبقى ما بَقِيَ اللِّسَانُ ... لأنّه لا يعرفُ دلالاتِ تراكيبِ العربيةِ إلاّ من فَهِمَ طَرَائِقَهَا في الإبانةِ عن المعاني»[1].

وعن هذه الأهميّة يتأتّى الإحسانُ في إعمالنَا النظرَ في أصيلٍ من ماهيته الاصطلاحية البلاغية، حيث يُعَدُّ الجاحظ أوّل من تحدّثَ عنه حتّى «قبلَ نُضُوجِ علمِ البلاغةِ وهيمنةِ مصطلحاتها»[2].

وأمّا بلاغيُ حَدِّهِ فَتَقَرَّرَهُ اسمًا جامعًا «لكلّ شيءٍ كشفَ لَكَ قِناعَ المعنى، وَهَتَكَ الحِجاب دون الضّمير، حتّى يُفضِي السّامعُ إلى حقيقته، ويَهجُمَ على محصوله

كائنًا ما كانَ ذلك البيانُ، ومن أيّ جنسٍ كان الدّليلُ، لأنّ مَدَارَ الأمرِ والغايةِ التي إليها يجرِي القائلُ والسّامعُ، إنّما هي الفَهْمُ والإفهامُ، فَبِأَيّ شيءٍ بَلَغتَ الإفهامَ وأَوضَحْتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع»[3]، وهذا ما يعني ويوجب دلاليًا وتداوليًا حُسْنَ «انتقاءِ الكلماتِ، ومراعاةِ حالِ المعنى»[4].

2.2 "البيان" بلاغيًا: الغاية:

يتحقّقَ لنا من مُتَقَدِّمِ مفهوم "البيان" أنّ مُنتهى غايةِ "البَيانِ" هي تمكينُ المخاطَب من الفهم والإفهامِ، وامتلاكُ «القدرةِ على الإبلاغِ وإيصال الدلالةِ»[5]، وهو ما يؤكّدهُ من البلاغيين الجاحظ الذي يرى أنّ رَبَّ العِزَّةِ جلّ جلاله إنّمَا وَهَبَ البيانَ لِخَلْقِهِ ليجعله «سَبَبًا فيما بينهم، مُعَبّرًا عن حقائقِ حَاجَاتِهِمْ، ومُعرِّفًا لمواضعِ سَدِّ الخَلَّةِ ورفع الشُّبهةِ، ومداواةِ الحيرةِ ... لأنّ الإنسانَ عن الإنسانِ أفهمُ، وطِبَاعُهُ بطباعهِ أَنَسُ، وعلى قدر ذلك يكون موقعُ ما يُسمَعُ مِنْهُ»[6].

3. أصنافُ الدلالاتِ على المعَاني بلاغيًا: "الماهية" و"المسمّى" و"العدد":

1.3 أصنافُ الدلالاتِ على المعَاني بلاغيًا: الماهية:

وأمّا السّبيلُ البلاغيةُ لإدراك مُبتَغَى الإبانةِ ذا، فمتعدّدةٌ متداخلةٌ وَسَائِلُهُ وقَنَواتُهُ اللّفظيّةُ منها وغيرُ اللّفظيّةِ، إذ «البَيَانُ أوسعُ من أن تُتَّخَذَ له وسيلةٌ واحدةٌ، ولا يكفِي به الدَّلِيلُ اللّفظيُ وَحدَهُ»[7]، ولهذا جَعَلَ الرحمن جلّ جلاله لِخَلْقِهِ «أَلَةَ البَيَانِ التي بها يتعارفُون معانِيَهُمْ في أربعة أشياء، وفي خَصلةٍ خامسةٍ، وإن نَقُصَتْ عن بُلُوغِ هذه الأَربَعَةِ في جِهَاتِهَا، فقد تُبَدَّلُ بِجِنسِهَا الذي وُضِعَتْ لَهُ وصُرِفَت إليهِ، وهَذِهِ الخِصَالُ هي: اللَّفظُ، والخَطُّ، والإِشَارَةُ، والعَقْدُ، والخَصلةُ الخَامِسَةُ مَا أَوجَدَ من صِحَّةِ الدَلَالَةِ»[8]، وخَامِسُ هذه الخصالِ هي "الحَالُ" التي تُسَمَّى "نِصْبَةً". ولا يعدو دورهَا جُملةً من فعلِ البيانِ، إلاّ كَونُهَا آلاتٍ «وأدواتٍ بيانيةً تُمكّنُ الإنسانَ من ممارسةِ فعلهِ الاستدلالي»[9].

فهذا جامعُ وِفاقها في إفادةِ الدلالةِ والإبَانَةِ عن معاني الجُمَلِ، وإن تمايزتْ رُبَّمَا – على تَراتُبيتها هذه- كثرةً في الاستعمالِ، وهذا من مُتَقَرَّرٍ وثابتِ الصّحةِ بلاغيًا متقادمًا كَمَا لسانيًا محدَثًا. وبه أَقَرَّ الجاحظ أَنَ تأكيده على أنّ «لكلّ واحدٍ من هذه الخمسة صورةٌ

بائنةٌ من صورةِ صاحبتها، وحِليةٌ مخالفةٌ لِحِليَةِ أُختها، وهي التي تكشفُ لكَ عن أعيانِ المعاني في الجملة، ثمّ عن حقائقها في التّفسير...»[10].

2.3 أصناف الدلالاتِ على المعَاني بلاغيًا: المسمَّى:

هذا وقد اتّفقَ البلاغيون –كَمَا المفسّرون والأصوليون- على أنّ للدلالة أنواعًا أو أصنافًا، وإن تَبَايَنُوهَا في ذلك مُسَمَّيَاتٍ، «فَسُمِّيَتْ أنواعَ الدلالةِ، وسُمِّيَتْ أصنافَ الدلالةِ، وسُمِّيَتْ أقسام الدلالةِ، وسُمِّيَتْ وجوهَ الدلالةِ،وأسمَاها الجاحظ أصنافًا»[11].

وهذا على سَمْتٍ من الإجمال يجتمعها بُعْدَيْ التّواصلِ والإبلاغِ لفظيُّهُ وغيرُ لفظيّهِ أَنًا معًا، ويُعَدُّ الجاحظ –في ميزان درس البلاغة والاتّصال محدثًا- من ثاقبِ هذا النظر رائدًا، فهو «أوّلُ من فَطِنَ من علمائنا القدماء إلى قنواتِ الاتّصالِ غير اللّفظيّةِ وسيطًا للتّفاهمِ بين النَّاسِ. وإذا جعلنا الاتّصالَ -مبدئيًا- مرادفًا للإفهامِ أو الدلالاتِ على المعاني عنده، فإنّ الجاحظ قد وضع يده منذ أكثر من ألفِ سنةٍ على نَوعَيْ الاتّصال الرئيسيين: اللّفظيُ وغيرُ اللّفظي، بل وضع يدهُ عليهما مستخدمًا هذه المصطلحات ذاتها»[12].

3.3 أصناف الدلالاتِ على المعَاني بلاغيًا: العدد:

ومن تمام آنفِ البيان والتّبيان، ما انتهى إليه بعض البلاغيين من تَبَايُنِهَا عدَدًا، بين مُعَدِّدٍ لها أربعًا تارةً، وقائلٍ بها أُخرى خمسًا، فأمّا أربعتها الأُوَلُ، فممّن توارد ذِكرها لدنه الجاحظ في كتابه "الحيوان" في قوله: «وَجُعِلَ البيانُ على أربعة أقسامٍ: لفظٌ، وَخَطٌّ، وعَقدٌ، وإشارةٌ»[13]. وبمثله أيضًا قال السلجماسي في مصنّفه: "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع" من أنّ أَضرُبَ البيانِ «أربعةُ أنواعٍ هي: الكلامُ، والإشارةُ، والحالُ، والعلامةُ»[14].

غير أنّ الجاحظ سرعانَ ما عادَ لِيستحيلَ أربعتها ذي (الكلام، والإشارة، والحال، والعلامة) خمسًا، فقد ذكرَ في البيان والتّبيين أنّ «جميعَ أصنافِ الدَّلالات على المعاني من لفظٍ وغير لفظٍ، خمسةُ أشياءَ لا تَنقُصُ ولا تَزِيدُ: أوّلها اللّفظُ، ثمَّ

الإشارةُ، ثمّ العَقْدُ، ثمّ الخَطُّ، ثمَّ الحالُ التي تُسمّى نِصبَةً. والنِّصبَةُ هي الحال الدّالةُ التي تقوم مقام تلك الأصنافِ، ولا تُقَصِّرُ عن تلك الدِّلالاتِ»[15].وبها أيضًا قال المصنّفُ في "الحيوان" –بعدَ أن عَدَّدَهَا أربعًا على نحو ما وقفناهُ قبلُ- وإنْ أَحَالَ هذه المرّةَ إلى "النِّصبةِ" أو "الحَالِ" لمحًا من الشّرحِ دونهُ اللّفظُ، فَجَمْعُ هذه الآلاتِ أو الخصالِ: «اللّفظُ، والخَطُّ، والإشارة، والعَقْد، والخَصلة الخامسةُ ما أَوجَدَ من صحَّة الدلالةِ، وصدقِ الشهادةِ ووضوحِ البرهانِ، في الأَجرَامِ الجامدةِ والصّامتةِ، والسَّاكِنةِ التي لا تَتَبَيَّنُ ولا تَحُسُّ، ولا تَفهَمُ ولا تتحرَّكُ إلاّ بداخلٍ عليها، أو عندَ مُمسِكٍ خُلِّيَ عنها، بعد أن كان تَقييدُهُ لَهَا»[16].

4.3 أصنافُ الدلالاتِ على المعَاني بلاغيًا: أسرارٌ وملاحظات:

وبلفسفته الكلامية المعتزلية المعهودة التي اصطبغتْ بها جُلُّ مصنّفاته، وعلى هَديٍ من الحكمة الربّانيةٍ ماثلةٍ، وفي لمحٍ من النظر ثاقبٍ، والتّفسير الدّيني مُعْجِبٍ، يُشيحُ لَنَا الجاحظ بعض أسرار تراتبية تصنيفه ذا، فيرى أنّ الخَالِقَ عزّ وجلّ قد «قَسَّمَ الأقسامَ وَرَتَّبَ المَحسُوسَاتِ، وحَصَّلَ الموجوداتَ، فَجُعْلَ اللّفظَ للسَّامعِ، وجعل الإشارةَ للنَّاظِرِ، وأشركَ النَّاظِرَ واللاَّمِسَ في معرفةِ العقدِ، إلاّ بِمَا فَضَّلَ اللهُ به نصيبَ النَّاظِرِ في ذلك على قدْرِ نصيبِ اللاَّمِسِ. وجعلَ الخَطَّ دَلِيلاً على ما غَابَ من حَوَائِجِهِ عنهُ، وسَبَبًا موصولاً بينهُ وبينَ أعوانهِ، وجعلهُ خَازِنًا لِمَا لا يأمنُ نِسيانهُ، مِمَّا قد أحصاهُ وحَفِظَهُ، وأَتقَنَهُ وَجَمَعَهُ، وتَكَلَّفَ الإحاطةَ به، ولم يَجعل للشَّامِّ والذَّائِقِ نصيبًا»[17]. وحَسَنًا بِنَا لو وقفنا على هذا المقول مَلِيًّا، نتهادى ونَتَلَمَّسُ بعض أهمّ ملامح العبقرية البيانية الجاحظية الفذّةِ فيه، في نحوٍ من هذا البيان:

1– تصنيف الجاحظ لأنواعِ الدلالة هنا منبثقٌ أساسًا عن تصنيفٍ حسّيٍ: فللّفظ السّمعُ، وللإشارة النظرُ، وللعقد مُجْتَمِعُ النظرِ واللَّمْسِ، ولم يذكر لـ"الخَطِّ" صريحَ حَاسَّتَهُ، ولربّما أنابَهَا "النَظَرَ" دليلَهُ، و"اليَدَّ" أَلَتَهُ. وأمّا "الحَالُ" أو النِّصبَةُ، فالحسبُ أنّها هنا –على ما يتراءى لَنَا- وسيلةٌ ذهنيّةٌ للاستبانةِ والتَبَصُّرِ والاستدلالِ.

2– تحقيقُ الجاحظ هنا منصبٌّ في جوهرهِ على فكرة "البيانِ"، وَسَمْتٌ حقيقٌ لِحِسِّيِ أَلاتِهِ ثَبْتٌ من "التكاملِ" غالبًا يَتَعَلَّقُهُ ويَتَعَالَقُهُ، نحوًا خاصًّا من "العقدِ" نظرًا ولَمْسًا حِسِّيًا مُتَحَسِّسًا.

3– وكما قد تَتَعَالَقُ حَوَاسُّ المَرءِ آلاتِ "البيانِ"، فَمَا هي بالموجبةِ -أجمعُها- "عبارةً" لا "إشارةً" ضربَ الإفصاحِ والبيانِ، وَسَوقٌ لذلك مثلاً حَاسَّتَا "الشَّمّ" (الأنف)، و"التَذَّوقِ" (اللّسان). وإفادةُ هذا الحكم ثابتةٌ بديهةً لِلْعَيَانِ، فليسَ "التَذَّوقُ" -"عبارةً" لا "إشارةً"- مفيدٌ للبيانِ، وإن كان صُدورهُ عن ذاتِ آلةِ "اللّفظِ" "اللّسانُ".

هذا، وقد أعمل الجاحظ وثلّةٌ من متأخّرِي البلاغة نظرَهم في تفصيل حقيقةِ هذه الأنواعِ، كَمَا واتّخذوها منهجًا في دراسةِ فُنُونِ البَيَانِ والتَوَاصُلِ. ومِثلُهُمْ استوقفَ تِبيانُها لَحْظَ كثيرٍ من مُحدَثِ الدّارسين في علوم الدلالة والخطاب والتداولية والاتّصال خاصّةً، وقد خلصوا منها بعد طولِ نظرٍ، ومزيدِ تحقيقٍ وتمحيصٍ إلى اعتدادُها –غالبًا وعلى اختلافٍ في الرُؤَى- ضَرْبَيْنِ أو صِنْفَيْنِ اثنَيْنِ رَئِيسَيْنِ لكلّ منهما أَنوَاعُهُ وآلَاتُهُ، فَلِلَفظِيّهَا مُشْتَمَلُ "اللّفظِ" (الصّوت) و"الخَطّ" (الكتابة)، وعلى هذا المعتبَر اعتدّوا لهذا الاتّصال اللّفظي مفهومًا مُؤَدَّاهُ كُونُهُ ذلك «الاتّصال الذي يستخدم العلامات اللّغوية وسيطًا له»[18].

وأمّا غيرُ اللّفظي[19] منه، فاختصّوهُ –غالبًا- بما دون اللّفظِ والخطّ من "الإشارةِ"، و"العقدِ"، و"النّصبَةِ". وهكذا «وبناءً على كلام الجاحظ السابق، سيصبحُ "اللّفظُ" أساسًا للدلالةِ اللّفظيّةِ على المعنى، بينما تُبنى الدلالةُ غيرُ اللّفظيّةِ على الأنواعِ الأربعةِ الأخرى، وهي على التّرتيب: الإشارةُ، والعقدُ، والخطُّ، والنّصبةُ. وربّما جاز لنَا –في ضوء نظرية الاتصال الحديثة- أنّ نجعل "اللّفظ" و"الخطّ" مُمَثِّلَيْنِ معًا للاتّصال اللّفظي، من جهة القصد باللّفظ الاتّصالَ اللّفظي المنطوقِ، والقصدُ بالخطّ الاتّصال اللّفظي المكتوب، ولعلّ الجاحظ نفسه قد رَمَى إلى شَيءٍ من ذلك، بدليل تطرُّقه إلى تحديد الخواصّ الفارقةِ بين النُّطقِ والكتابةِ»[20]. وبعامّةٍ فإنَّ درس هذه الأنواع البيانيّةِ يطولُ بحثها، وما يَسَعُنَا هنا تفصيلها أجمعها، وحسبنا هنا من لفظيّها المُنطَلَقُ، وبغيرِهِ الختام.

4.أصنافُ الدلالاتِ على المعَاني بلاغيًا بين الماهية و الوظيفة التّواصليّة:

1.4الخط:

وآلته في الرَّسْمِ "القلمُ" يَدًا، ومن قديمٍ قالت العرب: «الخَطُّ لِسَانُ اليَدِ»[21]، وكثيرًا ما يقترن بـ"اللّفظِ" إفادةً لمعاني الكلام، وهو قرينُهُ الأساسُ –مقالاً- في تِبيَانِهِ وإفادته، «فَأَيُّ نفعٍ أعظمُ، وأَيُّ مِرفَقٍ أَعوَنُ من الخَطِّ»[22]، ولهذا كان من مأثورهم: «القلمُ أحدُ اللِّسَانَينِ»[23]. ثمّ إنّه قبل هذا وذاكَ آلَتُهُ التي تسعى –غالبًا- إلى استحالةِ نِظَامَهُ الصَّوتي رَسمًا، «فالكتابةُ محاولةٌ لترجمةِ الظاهرةِ الصّوتيةِ السّمعيّةِ إلى ظاهرةٍ كتابيةٍ مرئيةٍ»[24].

وقد عدَّدَ الجاحظ جليلَ منافعِ "الخَطِّ"، وبيّنَ لَنَا بعضَ جَنَى فوائده، فذكرَ منها أَتِيًا من بعض هذه الثّمرات:

1– الخطُّ تُرجُمَانُ اللّفظِ لحاضرٍ من المعنى الذي كثيرًا وسريعًا ما تُدْرَسُ حَقَائقُهُ، وَتَمَّحِي آثَارُهُ. وهذا ما يُفِيدُنَا نَظَرُهُ هنا بَابًا من وصف الحالِ الكلاميةِ حضرةً وغيبةً، أَنَا وحِكايةً. وقد تَقرَّرَ دلالةً مِدَادُ بَوْنِ هَذَينِ النَّهْجَيْنِ في تبيُّنِ حقيقِ الدلالةِ، فَبِالحَضْرةِ والأَنِ اللّفظُ والخَطُّ مجتمعانِ، وما لغير الخَطِّ –بعيدًا في الزّمان- بالغيبةِ والحكايةِ اختصاصٌ، إذ الكتابةُ قَيْدٌ.

وبهذا جاوزتْ إفادةُ "الخَطِّ" للمعنى "اللّفظَ" مدادًا في الأزمنةِ، وتغايرًا في الأمكنةِ، وتبايُنًا في تِعدَادِ المُخَاطَبِينَ كثرةً في الخَطِّ دونها اللّفظُ، كما كان التّقويمُ والانزياحُ والعدولُ والتّهذيبُ للكلامِ نظمًا ومعنًى في الخَطِّ أَوْفرَهُ وأَمْكَنَهُ منه في اللّفظِ،ولهذا «قَالُوا القَلَمُ أبقَى أثرًا، واللِّسَانُ أكثرُ هَذَرًا. وقَالُوا: اللِّسَانُ مقصورٌ على القَرِيبِ الحَاضِرِ، والقَلَمُ مُطلَقٌ في الشَّاهِدِ والغَائِبِ، وهو للغَابرِ الحَائِنِ، مثلُه للقائمِ الرَّاهنِ. والكتابُ يُقرَأُ بِكُلِّ مكانٍ، ويُدرَسُ في كُلِّ زَمَانٍ، واللِّسَانُ لا يَعْدُو سَامِعَهُ، ولا يتجاوزُه إلى غيرِهِ»[25].

2- "الخَطُّ" وبُعْدُ "المقال" بلاغيًا: وكُنَّا قد تَقَدَّمْنَا سَلَفًا التّنبيهَ إلى نهجِنا دربًا في التحقيق يقتضي اجتماعَ وتكاملية "الخَطِّ" و"اللَّفظِ" دليلاً على بُعد الاتّصال لفظًا أو عبارةً، وهو ما نتهاداهُ حقيقةً لدى الجاحظ في إفادته لهذا البُعدِ أَخَصُّ دلالةً من السياق مقاليةً، ولعلَّ في مصطلحه "لِسَانُ القلمُ" بعض ما يدلُّ –رُبّمَا- على صحّة هذا النظر، فقد جاء في كتابه الحيوان أنّه لَمَّا «الحاجةُ إلى بيان اللّسانِ حاجةً دائمةً واكدةً، وراهنةً ثابتةً، وكانت الحاجةُ إلى بيانِ القلم أمرًا يكون في الغَيبةِ وعند النّائبةِ، إلاّ ما خُصَّتْ به الدواوين، فإنّ لسانَ

القلم هناك أبسَطُ، وأثره أَعَمُّ»[26]، لَكَأَنَّهُ يُقَابِلُ بدلالةِ وماهيةِ هذا المصطلحِ مصطلحَ "لِسَان الحَالِ" الذي أُثِرَ عن العربِ مَقُولُهُم فيه: «لِسَانُ الحَالِ أَبْيَنُ من لِسَانِ المقالِ»[27].

ونظائر مزايا "الخَطِّ" هذه في إفادةِ دلالاتِ الكلامِ كثيرةٌ متكاثرةٌ، تَذَاكَرَهَا الجاحظ وغيرهُ من محدَثِ الدّارسين، وما وجهُ المفاضلة هنا بالقصرِ عليها و"اللّفظِ" حسبُ، بل إنّها تتخطّاهُ إلى أصنافِ الدلالةِ الأخرى نحوًا من الإشارةِ خاصّةً، وهذا لحظٌ إلى موضعها هناك نُرْجِئُهِ، كما ونُرجِئُ قبلهُ بحثَ فضائلِ "اللَّفظِ" عن "الخَطِّ" ذاته، إذ لِكُلِّ منهما مزايَاهُ وخَوَاصُّهُ التي تتفاضلُ الكلامَ في مواضعَ بِعينِها أكثر من الأُخرى.

2.4 اللّفظ:

وآلته في النُّطقِ "الصَّوتُ" لِسَانًا، فـ«الصّوتُ هو آلةُ اللّفظِ، والجوهرُ الذي يقوم به التَّقطيعُ، وبِهِ يوجد التَّأْلِيفُ»[28]. ولئن تَقَدَّمَنَا القول بأنّ «القَلَمَ أحدُ اللِّسَانَينِ»[29]عبارةً، فإنّ اللَّفظَ (الصَّوتَ) لِسَانُهُ الآَخَرُ. كَمَا تُعَدُّ طَلَاقَتُهُ أُولى آلاتِ البلاغة في البيان، وقد جاء في الصّناعتين أنّ «أَوَّلَ آلاتِ البلاغة جَوْدَةُ القريحة وطلاقةُ اللِّسَانِ»[30]. ثمّ إنّه –غالبًا- قرينُ الخَطِّ في التواصلِ اللّفظي، وإن بَايَنَهُ وقابلهُ مثلاً أصالةَ النّشأةِ، حيث «عَرَفَ الإنسانُ الكلامَ المنطوقَ قبل أن يخترعَ الكتابةَ بأحقابٍ طويلةٍ لا ندري مَدَاهَا في القِدَمِ»[31].

وبنحوها عَفوِيَتُهُ الغالبةُ واجتماعيةُ طبيعتهِ اللّسانيّةِ المتأصّلةُ بطابعها ذا جَمْعَ البَشَرِ متعلّمًا وغير متعلّمٍ، فـ«اللّغةُ الشّفويةُ عقدٌ جماعيٌّ، وفي الآَنِ ذاته صَكٌّ فرديٌّ، وهي لا تختلفُ مبدئيًا في الرّموز والقوانين المتبادلةِ بين المتعامِلين بها في شيءٍ قليلٍ ولا كثيرٍ، لأنَّ كُلَّ واحدٍ من هؤلاء وأولئك فيها مُلزَمٌ إجباريًا بعقدها الجماعي الاجتماعي»[32].

وَوِفَاقُهُ أيضًا ما امتازت به هذه اللّغة من «ذكاءٍ اجتماعيٍ أكثر سموًّا من نظيرتها المخطوطة»[33]. وكذا من شيوعٍ في الاستعمال والتداول، «فَمَا دُمْنَا نتكلّمُ أكثر مِمَّا نكتبُ، فإنّ الاتّصالَ اللّفظي المنطوقَ في الحياةِ اليوميّةِ أَعَمُّ وأَهَمُّ من الاتّصالِ اللّفظي المكتوبِ، وهو بذلك أعمُّ أنواعِ الاتّصالِ وأَهَمُّهَا على الإطلاقِ»[34].

ونظائر سِمَاتِ التّباين ذي لفظًا عن خَطٍّ متعدّدةٌ ما يسعنا حصرها جملةً، وقد أجمل الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471ه) بعضها أنَ تِعدَادِهِ لفضائل ومزايَا "اللّفظ" ذا في فهمِ وتمييزِ وترجيحِ وتوجيهِ واستكناهِ حقيقِ معاني الكلام، فقد جاء في الدلائل أنّ «اللِّسَانَ أداةٌ يظهر بها حُسن البيانِ، وظاهرٌ يُخبِر عن الضَّميرِ، وشاهدٌ يُنْبِئُكَ عن غائبٍ، وحاكمٌ يُفْصَلُ به الخطابُ، وواعظٌ يَنهى عن القبيحِ، ومُزَيّنٌ يدعو إلى الحَسَنِ، وزارعٌ يحرُث المودَّةَ، وحاصدٌ يحصُد الضَّغينةَ، ومُلْهٍ يُونِقُ الأسماعَ»[35].

وحسبنَا بَيّنًا هنا لمحُ الجرجاني ذا إلى أثر اللّفظِ (اللّسان) في حالِ السياق توصيفًا من مشاهدةٍ، وحكايةً عن غائبٍ، وهو قد تقدَّمَنَا البيانُ بأنّه بالوصفِ أنًا زمانًا ومكانًا، أَخَصُّهُ وأقربُهُ من الخَطِّ حكايةً عن شاهد الأحوال، وقد قالوا قديمًا «اللِّسَانُ مقصورٌ على القَرِيبِ الحَاضِرِ، وهو للغَابرِ الحَائِنِ، مثلُه للقائمِ الرَّاهنِ. واللِّسَانُ لا يَعْدُو سَامِعَهُ، ولا يتجاوزُه إلى غيرِهِ»[36].

وتمامٌ لهذا اللّحظ أيضًا ما تَرَقَّبَهُ الجاحظ بيّنًا من سَمْتِ "المصاحبة" أو "التّكامل" - وكما الخَطُّ واللّفظُ متقدِّمًا- يَتَعَالَقَانِ "اللَّفظَ" و"الإشارةَ" في تِبيَانِ صحيحِ المعاني، فـ«الإِشَارَةُ واللَّفْظُ شَرِيكَانِ، ونِعْمَ العَوْنُ هي لَهُ، ونِعْمَ التُّرْجُمَانُ هِيَ عَنْهُ. وَمَا أَكْثَرَ مَا تَنُوبُ عن اللَّفْظِ، ومَا تُغْنِي عن الخَطِّ»[37].

3.4 الإشارة:

وآلاتها في البيان متعدّدةٌ بخلاف ما تَقَدَّمَهَا من الخطّ واللّفظ، وهي عند الجاحظ: «اصطلاحٌ عامٌّ تدخل في حَوْزَتِهِ الإشارةُ والإيماءاتُ والحركاتُ الجسميةُ وتعبيراتُ الوجه والعَيْنَيْنِ جميعًا، فالإشارة عنده هي –في اختصارٍ- المصطلح المقابلُ للعبارة»[38].

ومن متعدِّدِ أشكالها ذي نظريةً في علم السُّلوكِ الاتّصالي الحركي في أصيلٍ من بلاغي تراثنا العربي ما تذاكرهُ المصنِّف من آلاتِهَا في قوله: «فَأَمَّا الإِشَارَةُ فَبِاليَدِ، وبِالرَّأسِ، وبِالعَيْنِ والحَاجِبِ والمِنْكَبِ إِذَا تَبَاعَدَ الشَّخصَانِ»[39]. فتحقّقَ بهذا أنّ مرادهُ بها إنّما هي الدلالة التي «تحصلُ ببعضِ أعضاءِ الجِسْمِ بتحريكِ العُضوِ على وجهٍ مُعَيَّنٍ لِلإِبَانَةِ عن معناهُ الذي يُريدُ إِفْهَامَهُ للرَّائِي أو للسَّامعِ على الحكايةِ»[40].

هذا وقد تقدَّمَ ابن المقفّع (ت145ه) "الإشارةَ" هذه بالذِّكر، وعدَّها أحد أوجه البلاغة فذكر أنّ: «البلاغةَ اسمٌ جامعٌ لِمَعَانٍ تجري على وجوهٍ كثيرةٍ. فَمِنهَا ما يكونُ في السُّكُوتِ، ومنها ما يكونُ في الاستماعِ، ومنها ما يكون في الإشارةِ»[41].

وقد تقدَّمْنَا التّنبيه إليها عمادًا لأنواع الدلالة غير اللّفظية، «فهي كما يُبيّنُ ترتيبُ الجاحظ نفسه، رأسُ العلاماتِ غير اللّفظية، كأنّها تحتلُّ المركز الأوّل بين العلامات غير اللّفظيّةِ من حيث الوظيفةِ الاتصاليةِ أو الدلالة على المعنى. وكأنّها بالتالي تحتلُّ المركز الثاني بعد اللّفظِ بين وسائط الاتّصال على الإطلاق»[42].

وبنحو الخَطِّ واللّفظِ أَنِفًا، فقد أفصحَ الجاحظ على مُتَقِدّمِهِ ذاك من مديدِ الزّمانِ الذي رَبَا عن الألف سَنَةٍ، عن ثُلَّةٍ من مزايَا الإشارة في الإفادةِ الدلاليةِ، وتحقيق فاعلية التواصل اللّساني، والتي ما ينفكُّ حادثُ درس اللّسان يقرُّ صوابها، ويوسِعُهَا مزيدًا من اللّحظ والتّفصيل في قَبِيلٍ من تمثّلاتها السياقية الحالية من مثل:

1– اجتماعُ الإشارةِ واللّفظِ أَنِيَةَ الوصف اللّساني خلافًا –غالبًا-للخطِّ، «فَأَمَّا الإشارةُ فأقربُ المفهومِ منها: رَفعُ الحواجِبِ، وكسرُ الأجفانَ، ولَيُّ الشِّفَاهِ وتحريكُ الأعناقِ، وقبضُ جلدةُ الوجهِ. وأبعدُها أن تَلْوِي بِثَوبٍ على مقطع جبلٍ، تُجاهَ عينِ الناظر، ثمّ ينقطِعُ عملها ويُدرَسُ أَثَرُهَا، ويموتُ ذِكرُهَا، ويصيرُ بعدُ كُلُّ شيءٍ عن انتهاءِ مَدَى الصَّوتِ ومُنتَهَى الطَّرْفِ»[43].

2– التّباينُ مدًى بين الإشارة واللّفظِ حسّيًّا ومعنويًا، فمن الحِسّ ما تَقَرَّرَ من بلوغ النظر إشارةً مدًى لا يتأتّاهُ منتهى اللّفظ صوتًا، فَلَكَمْ نُبصِرُ بالنَظَرِ أشياءَ ما يَصلها صَدَى أصواتِنَا. وأمّا المعنويُ منها فَثَابِتُهُ في الأذهان ومُتَقَرِّرُهُ في الأَعيَانِ المثل السّائر: «ليسَ مَنْ سَمِعَ كَمَنْ رَأَى»[44].

3– تكاملُ الإشارةِ اللّفظَ في إفادة المعاني، ناهيكَ عن إمكانيةِ إنابتِها إيَّاهُ في عددٍ من مواضعِ التِّبيان، فـ«الإشارةُ وحدَهَا قد تُغنِي عن اللّفظِ في الدلالةِ على المعنى، وقد تقترنُ باللّفظ فتؤكِّدُ دَلَالَتَهُ وتُقَوِّيهَا في نفسِ السَّامِعِ والرَّائِي، إذْ هي ترجمةٌ له»[45].

وقد تحدّثنا عن هذا اللّحظ قبلُ واستدللناهُ قولَ الجاحظ: «الإِشَارَةُ واللَّفْظُ شَرِيكَانِ، ونِعْمَ العَوْنُ هي لَهُ، ونِعْمَ التُّرْجُمَانُ هِيَ عَنْهُ. وَمَا أَكْثَرَ مَا تَنُوبُ عن اللَّفْظِ، ومَا تُغْنِي عن الخَطِّ»[46].

ومن بَيّنِ هذا التكامل إشارةً ولفظًا ما يسوقه لَنَا الجاحظ مثلاً بدلالاتِ الدَّلّ والشِّكْلِ والتَقَتُّلِ و...، فـ«حُسْنُ الإِشَارَةِ بِاليَدِ والرَّأسِ مِنْ تَمَامِ حُسْنِ البَيَانِ بِاللِّسَانِ، مَعَ

الذِيْ يَكُونُ مَعَ الإِشَارَةِ مِنَ الدَّلِّ والشِّكْلِ والتَقَتُّلِ والتَثَنِّي واستِدعَاءِ الشَّهْوَةِ وغير ذلكِ من الأُمُورِ»[47]، ومن تمامها:

4– تباينُ دلالاتِ الكلام لاختلاف طبقات أضرب الإشارة: ويختصُّنَا المصنِّفُ بهذا مثلاً حركاتُ "اليَدِ والرَّأسِ"، وجَلِيٌّ ما يَنْشَأُ عن اختلافِ طبقاتها من اختلافٍ بَيِّنٍ في دلالاتها،«فَهَلْ تَعدو الإشارةُ أن تكونَ ذاتَ صُورَةٍ مَعرُوفَةٍ، وحِليَةٍ مَوْصُوفَةٍ، على اختلافهَا في طبقاتهَا ودلالاتهَا»[48].

ومن بَيِّنِ هذا اللّحظ مثلاً إشارةُ العينِ، «فإشارةُ العينِ مثلاً، تَعرِفُ طبقاتٍ متفاوتةً من النَظَرِ والغَمْزِ ورفعِ الحاجبِ، ونحوها من الطبقات الأخرى التي ترتبط كلٌّ منها بدلالةٍ خاصّةٍ في موقفٍ اتّصالِي بعينهِ»[49].

وهذا عينُ ما نتحقّقهُ هنا لدن الجاحظ في تَمَثُّلاتِهِ بدلالاتِ الدَّلِّ والشِّكْلِ والتَقَتُّلِ و...، فـ«حُسْنُ الإِشَارَةِ باليَدِ والرَّأسِ مِنْ تَمَامِ حُسْنِ البَيَانِ باللِّسَانِ، مَعَ الذِيْ يَكُونُ مَعَ الإِشَارَةِ مِنَ الدَّلِّ والشِّكْلِ والتَقَتُّلِ والتَثَنِّي واستِدعَاءِ الشَّهْوَةِ وغير ذلكِ من الأُمُورِ»[50].

وهي الدلالاتُ النّاشِئَةُ قصدًا عن تبايُنِ حركاتِ جسمِ المُحِبّ مثلاً، ومايرومُهُ عن تنويعها ذا من بلوغِ مآربَ وغاياتٍ في نفسهِ، قد لا تَتَأَتَّاهُ إِفَادَتُهَا من الخَطِّ أو اللِّسَانِ صراحةً.

حتّى إنّنا لنجد صدى نظر الجاحظ ذا ماثلاً مثلاً عند ابن حزم الأندلسي (ت456ه)، وهو يَتَقَفَّى دربَ المُحِبّ في إدراكِ أُلْفَةِ محبوبهِ سبيلاً من الإشارة بالعين مثلاً، ومن سَلْوَتِهِ تلك نَصُّهُ: «ثُمَّ يَتْلُو التّعريضَ بالقولِ، إذا وَقَعَ القَبُولُ والمُوَافَقَةُ، الإشارةُ بِلَحْظِ العين، وإنّه ليقوم في هذا المعنى المقامَ المحمودَ، ويبلغ المبلغَ العجيبَ، ويُقطَعُ به ويُتواصَلُ، ويُوعَدُ ويُهَدَّدُ، ويُنتَهَرُ ويُبسَطُ، ويُؤْمَرُ ويُنْهَى ... ولكلّ واحدٍ من هذه المعاني ضربٌ من هيئةِ اللَّحظِ لا يُوقَفُ على تحديدهِ إلّا بالرُّؤيَةِ، ولا يُمكِنُ تَصويرُهُ ولا وَصْفُهُ إلّا بالأقلّ منه ... فالإشارةُ بِمُؤخِّرِ العَينِ الواحدةِ نَهْيٌ عن الأمر، وتَفْتِيرُهَا إعلامٌ بالقَبولِ، وإدَامَةُ نظرِهَا دليلٌ على التَّوَجُّعِ والأَسَفِ، وكسرُ نَظَرِهَا أَيَةُ الفَرَحِ ... واعلمْ أنّ العَيْنَ تنوبُ عن الرُّسُلِ، ويُدرَكُ بها المُرَادُ، والحواسُّ الأربعُ أبوابٌ إلى القلبِ ومَنَافِذُ نحوَ النَّفسِ، والعينُ أَبْلَغُهَا، وأَصَحُّهَا دلالةً، وأَوعَاهَا عَمَلاً»[51].

5– أنّ اجتِبَاءَ نهجِ الإخفَاءِ والاستِتَارِ في التِّبيَانِ، ممّن هو في أَضرُبٍ من أَسَالِيبِ التَّوريَةِ والكِنَايَةِ والمُوَارَاةِ والمُدَارَاةِ والإلغازِ و... - أداءً للتواصلِ وإفادةً لِخَاصِّ المعاني- رُبَّمَا كان أكثرُهُ تَحَقُّقًا في دلالةِ الإشارةِ منه في دلالةِ العبارةِ خَطًّا ولَفْظًا.

كما أنّهُ هناك أَوْفَى بمقاصد المُتَكلِّمِ سبيلاً، وأَبلغُ دليلاً، وإفادةً لإدراكِ وفهمِ خَوَاصِّ المعاني التي غَالِبًا مَا يَرُومُ المُتَكَلِّمُ لغيرِ خاصَّتِهِ من المخاطَبِينَ بُلُوغَهَا وكشفَ أغوارِ أسرَارِهَا، إذ فِي «الإشارةِ بِالطَّرفِ والحَاجِبِ وغير ذلك من الجوارحِ، مرفِقٌ كبيرٌ، ومَعُونَةٌ حَاضِرَةٌ، في أمورٍ يستُرهَا بعضُ النَّاسِ من بعض، ويُخفُونَهَا من الجَلِيسِ وغيرِ الجَلِيسِ. ولولا الإشارةُ لم يَتَفَاهَم النَّاسُ معنَى خَاصِّ الخَاصِّ، ولَجَهِلُوا هَذَا البَابَ البَتَّةَ»[52].

4.4 العقد:

وهو غالبًا ضربٌ من الإشارةِ، وإن كانتْ أَلَتُهُ بأصابع اليَدِ أَخَصُّ، وقد أَوجزَ الجاحظ بيان حَدِّهِ، فذكر أنّه «الحسابُ دونَ اللّفظِ والخَطِّ»[53]. كَمَا أعمل الدّارسونَ بَعدُ جهدهم في تفصيل مفهوم العقد ذا، فرأوهُ نوعًا «من الأنظمة البيانيَّةِ التي كان يستعملها العرب كنظامٍ عَدَدِيٍ حِسَابِيٍ، بِاستعمالِ شكلِ الأصابعِ كرموزٍ للدلالةِ على الأعدادِ، وهذا النِّظَامُ يُغنِي عن التَّلَفُّظِ بالعددِ، وقد كَانُوا يستعملونَهُ في الأسواقِ عند المُسَاوَمَاتِ في البيعِ والشِّرَاءِ، كنمطٍ من أنماطِ التَّفَاهُمِ بقصدِ سِرِّيَةِ الاتِّفَاقِ بين البائعِ والمُشترِي»[54].

وعلى إضاءتهِ الجزئيةِ ذي لمفهوم "العقد" هنا، إلاّ أنّ هذا المصطلح الجاحظي ما يزالُ يعتورهُ اصطلاحًا الكثيرُ من اللَّبس والإبهام، ولذلك «يبقى مفهوم البَيَانِ بالعقد، علامةَ استفهامٍ لا يُجَابُ عنها بالأكثر مِمَّا أورده الجاحظ نفسه في هذا الغرضِ»[55]، ومَا نَرَانَا عن صريحِ هذا الإقرارِ نزيدُ تعقيبًا أو تفصيلاً. ثمّ إنّه وباعتمادِ هذا الضّربِ الدلالي العَددي (العقد) على نُظُمِ الإشارةِ، نحوًا من أشكالِ الأصابعِ سبيلاً للتَّواصلِ، وتحقيق مطالبِ الإفادةِ الدلاليةِ، يتأكّدُ لنَا مدى إمكانيّة «إدراجهِ مع العلاماتِ غيرِ اللَّفظيّةِ»[56]، وبخاصّةٍ الإشارةُ منها.

كانت هذه إذًا ملامحُ موجزةٌ عن ماهيّته، وأمّا عن أهمّيتهِ في فضاءِ التّبيانِ الدلالي والتّواصل البلاغي الإبلاغي، فقد عَدَّدَ لَنا الجاحظ مزايًا من فضلهِ، أقلُّهَا معرفةُ الحسابِ يَدًا، كَمَا رَأَهُ مشتملاً على «مَعَانٍ كَثِيرةٍ، ومنافعَ جليلةٍ، ولولا معرفةُ العِبَادِ بمعنى الحسابِ في الدُّنيَا لَمَا فَهِمُوا عن اللهِ جلّ جلاله معنَى الحسابِ في

الآخرةِ. وفي عَدَمِ اللَّفْظِ، وفَسَادِ الخَطِّ، والجهلِ بالعَقد فسادُ جُلِّ النِّعَمِ، وفِقْدَانُ جُمهور المنافعِ، واختلالُ كُلِّ ما جعلهُ اللهُ عزّ وجلّلَنَا قِوامًا، ومصلحةً ونِظامًا»[57].

5.4 الحال أو النّصبة:

وهي من الأجسامِ الخُرَّسِ من الجَمَادِ رُبَّمَا أَخَصُّ منها بِحِسِّيّهَا، وقد نبّهْنا أَنِفًا أَنَّهَا وعلى احتمالها الجاحظي البلاغي–خاصّةً في موضعهَا من الدَّرسِ ذَا- ذاتَ لفظِ "الحَالِ" رَسْمًا، إلاّ أنّها ما تُدانيها –غالبًا- منزلةَ "الإشارةِ" قبلُ في احتِمَالِهَ البلاغي الأصيلِ لحادثٍ من محمولِ "الحَالِ السياقيةِ" مفهومًا، بِمَا يَتَمَثَّلُهُ «العَالَمُ الخارجُ عن اللّغةِ بِمَا لَهُ من صِلَةٍ بالحدثِ اللّغوي أو النّص، ويتمثّلُ في الظّروف الاجتماعيةِ والنّفسيّةِ والثقافيةِ للمتكلّمِ، والمشتركِينَ في الكلام أيضًا»[58].

ولهذا لم نلحظ لها مع الجاحظ تفصيلاً نحوًا من الإشارةِ أَنِفًا، إلاّ ما وقفناهُ منه على نُبَذٍ من حَدِّهَا، «فهي الحالُ النَّاطقةُ بغيرِ اللَّفْظِ، والمُشِيرَةُ بغيرِ اليَدِ»[59]. ولَرُبَّمَا أراد ببيانِهَا ذا «ما تُوحِي بِهِ الأشياءُ لعقلِ النَّاظِرِ وذهنِ المُتَبَصِّرِ. ومن حَقِّ هذه "الحالِ" أن يكونَ المرجعُ فيها تدبيرًا عقليًا ذاتيًا، لا صفةً موضوعيَّةً في الأشياءِ نفسهَا»[60].

وإنّها لَفِي مُوجَزٍ من العبارةِ: منطوقُ الصَّامِتِ إِشَارَةً لا عِبَارَةً، وهذا «ظاهرٌ في خلقِ السّمواتِ والأرضِ، وفي كُلِّ صَامِتٍ ونَاطِقٍ، وجَامِدٍ ونَامٍ ... فالدلالةُ التي في المَوَاتِ الجَامِدُ، كَالدّلالةِ التِي في الحيوانِ النَّاطِقِ. فَالصَّامِتُ نَاطِقٌ من جهةِ الدلالةِ، والعَجماءُ مُعْرِبَةٌ من جِهَةِ البُرهَانِ ... ومَتَى دَلَّ الشَّيءُ عَلَى معنًى فقد أخبرَ عنهُ وإن كان صَامِتًا، وأشارَ إليهِ وإن كانَ سَاكِتًا. وهذا القولُ شائعٌ في جميعِ اللُّغَاتِ، ومُتَّفَقٌ عليهِ مع إفراطِ الاختلافاتِ»[61].

كان هذا النظر ضربًا عن بَيِّنِ التباسِهَا الجاحظي –الغالب- مفهومًا، وما نَرَانَا بُعدَهُ المصطلحي عنه ببعيدٍ، فـ«النِّصبَةُ كمصطلحٍ بَيَانِيٍ، لم تَسْتَقِر على هذا المدلولِ إلاَّ في كتاب البيانِ والتَّبيين، وأمَّا في التَّصَانِيفِ السَّابِقَةِ ككتابِ "الحيوان"، فإنَّ المصطلحَ لم يكن قد تَكَوَّنَ بعدُ، وإنْ يَكُنْ مَفهُومُهُ محدَّدًا بِكُلِّ دِقَّةٍ، ومعناهُ واضحًا أَتَمَّ الوضوحِ»[62].

وعلى هذا المعتبَر فقد عُدَّتْ "الحَالُ" –بتصّورها البلاغي المفاهيمي ذا الذي ذكرهُ الجاحظ- في عالمِ التّواصلِ غيرِ اللّفظي «من العواملِ الخارجةِ عن نطاقِ اللّغةِ، لأنّها ليست مفهومَ الشّيءِ ذاتهُ، إنَّمَا هي دلالةُ حَالِهِ التي يستنبطهَا المستخدِمُ»[63].

كما تحقَّقَ بهذا النظر أنّ موضوعها إنّما هو «الأجسامُ الخُرَّسُ -أيًّا كانت- بَيَانُهَا عن طريقِ تَمكِينِهَا للدَّليلِ المُستَدَلِّ"العاقلِ" إلى معرفةِ مَا استُخزِنَ فيها من البرهانِ، وما حُشِيَتْ به من الدلالة، مُعرِبَةً بِنِصبَتِهَا عن صِحَّةِ الشَّهَادَةِ على وجودِ اللّهِ»[64].

وكَفَى مُتَأَخِّرَ دلالتها ذي على وجود الذّاتِ العليّةِ شرفًا، وسَامِقَ منزلةٍ، ولهذا نبّهَ المصنِّف أنّ النّاسَ لو كانوا «يعرفون جملةَ الحَالِ في فضلِ الاستبانَةِ، وجملةَ الحالِ في صوابِ التَّبْيِينِ، لَأَعرَبُوا عن كُلِّ مَا تَخَلَّجَ في صُدُورِهِمْ، ولَوَجَدُوا من بردِ اليَقِينِ مَا يُغنِيهِمْ عن المنازعةِ إلى كُلِّ حَالٍ سِوَى حَالِهِمْ ...، ولكنَّهم من بينِ مَغمُورٍ بالجهلِ، ومَفتُونٍ بالعُجْبِ، ومَعدُولٍ بالهَوَى عن بابِ التَّثَبُّتِ، ومصرُوفٍ بِسُوءِ العَادَةِ عن فضلِ التَعَلُّمِ»[65].

ولبَيَانِهِ وبيانِ أثرِهِ (دلالةُ السُّكُوتِ/الصَّمْتِ على المعاني) -لِمَنْ يَرُومُهُ- لُمَحٌ وطرائفُ أُخرى سياقيةٌ حاليةٌ من نظرٍ نحويٍ عربيٍ، يَرمُقُ في دِقَّةٍ وإعجازٍ لُغَوِيَيْنِ ثلّةً من أبرزِ سِمَاتِ نحونا العربي في عنايتهِ بجمالياتِ الكلامِ العربي وأَضرُبِهِ من الإبانةِ والاستدلالِ رسمًا ونُطقًا وإِشَارَةً وعَقدًا ونِصبَةً، والتي حسبُنا إجمالاً عن مدادِ القول فيها، تلكم النتائج التي تَهَادَى إليها محمد العبد من درسه لمنحاها التواصلي بخاصّةٍ.

ولبَيَانِهِ وبيانِ أثرِهِ (دلالةُ السُّكُوتِ/الصَّمْتِ على المعاني) -لِمَنْ يَرُومُهُ- لُمَحٌ وطرائفُ أُخرى سياقيةٌ حاليةٌ من نظرٍ نحويٍ عربيٍ يَرمُقُ في دِقَّةٍ وإعجازٍ لُغَوِيَيْنِ ثلّةً من أبرزِ سِمَاتِ نحونا العربي في عنايتهِ بجمالياتِ الكلامِ العربي وأَضرُبِهِ من الإبانةِ والاستدلالِ رسمًا ونُطقًا وإِشَارَةً وعَقدًا ونِصبَةً.

5. خاتمة:

وإلى إجمالِ ما انتهى إليه الباحث قبلُ، نستخلصُ ختامًا من القول آخَرُ، فَنَتَحَقَّقُهُ من خلال:

- استهلالُ الجاحظ حديثَهُ عن ماهية "البَيَانِ" سبيلاً لَهُ لِدَراسَةِ الدلالةِ بلاغيًا، وقد تَبَدَّتْ لَنَا غايتهُ تلك أكثر جلاءً أَنَ عرضهِ لأصنافِ الدلالاتِ على المعاني، فجاءَ تفصيلُ نظرهِ فيها بليغًا مُحْكَمًا، ما يعكسُ لِنَاظِرِنَا رِيَادَتَهُ الفَذَّةَ في هذا التّصنيفِ. وليس أَقَلَّ من هذا

وضوحًا اتّخَاذُهُ هذا العرضَ سبيلاً لدراسةِ نظريةِ "الاتّصال والتّواصل" أساسًا. فعدَّدَ لَنَا خَاصًّا من أنواعهَا لفظيّةً (عبارةً) وغيرَ لفظيّةٍ (إشارةً)، ثمَّ ما لَبِثَ أن بَيَّنَ لَنَا قنواتِ كُلٍّ منها وآلاتِهِ في البَيَانِ.

- وأَمَّا المُهِمُّ الأَهَمُّ في كُلِّ هذا التّصنيفِ، فَجَسَّدَهُ تَفصِيلُهُ القولَ في السُّبُلِ والآلِيَاتِ التي تَنحَاهَا كُلُّ قَنَاةٍ وآلَةٍ، منفرِدةً حينًا، ومُتَدَاخِلَةً مُتَعَالِقَةً أُخرى، في إِصَابَةِ دقيقِ المعنى وبلوغِ مقاصدِ الكلام من الفهمِ والإفهامِ. فكان أن وقعَ منها بِثَاقِبِ هذا النظر من التّفصيلِ مَوقِعَ المُحَقِّقِ المُدَقِّقِ، والمُصَنِّفِ المُتَفَرِّسِ الحَذِقِ، والرَّائِدِ المُلْهَمِ الفَذِّ، الذي شَاكَلَ إلى حَدٍّ بعيدٍ بعبقريّةِ أنموذجِهِ التواصلي ذا، ما تَنَاهَى إليه حديثًا جهدٌ متعاظمٌ متكاثِرٌ من روّادِ البحث الاتّصالي التواصلي في حقولٍ من المعرفةِ الإنسانيةِ متعدّدةٍ لِسانيًا وإعلاميًا ونفسيًا واجتماعيًا ... تتهاداه مزيدًا من نظرها مفصّلاً من التحقيقِ والنظر.

الهوامش والاحالات:

[1] أبو موسى، محمد محمد، (2017)، المسكوت عنه في التراث البلاغي، مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص101-102.

[2] صافار، إبراهيم عبد السلام، (2016)، أصناف الدلالات على المعاني، مجلة شمالجنوب كلية الآداب جامعة مصراتة، ليبيا، العدد7، ص111.

[3] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1998)، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ج1، ص76.

[4] لوشن، نور الهدى، (2006)، علم الدلالة (دراسة وتطبيق)، المكتب الجامعي الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ص63.

[5] بودوخة، مسعود، (2012)، السياق والدلالة، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ص101.

[6] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1965)، الحيوان، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ج1، ص44-45.

[7] العبد، محمد، (2007)، العبارة والإشارة (دراسة في نظرية الاتصال)، الناشر مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ص143.

[8] الحيوان، ج1، ص45، بتصرّف.

[9] أصناف الدلالات على المعاني، ص114.

[10] البيان والتبيين، ج1، ص76.

[11] علم الدلالة: دراسة وتطبيق، ص38.

[12] العبارة والإشارة، ص143.

[13] الحيوان، ج1، ص33.

[14] السجلماسي، أبو محمد القاسم، (1980)، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، الناشر مكتبة المعارف، الرباط، المملكة المغربية، ص416.

[15] البيان والتبيين، ج1، ص76.

[16] الحيوان، ج1، ص45.

[17] المرجع نفسه، ج1، ص45-46.

[18] العبارة والإشارة، ص15.

[19] ولم يحظَ قديمًا ولا حديثًا بوحدةِ المفهوم، «فإذا ما نظرنا إلى الاتّصال غير اللّفظي، وجدناهُ من أسوء المفاهيم تحديدًا في السيمياء كلّها». ينظر: العبارة والإشارة، محمد العبد، ص99-100.

[20] المرجع نفسه، ص144-145.

[21] القاسمي، علي، (2001)، معجم الاستشهادات، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ص188.

[22] الحيوان، ج1، ص48.

[23] المرجع السابق، ص465.

[24] حجازي، محمود فهمي، (2003)، أسس علم اللّغة العربية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ص9. والبيان والتبيين، ج1، ص79.

[25] البيان والتبيين، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص47-48.

[26] الحيوان، ج1، ص48.

[27] معجم الاستشهادات، ص176.

[28] البيان والتبيين، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص79.

[29] المرجع السابق، ص465.

[30] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، (1952)، كتاب الصّناعتين (الكتابة والشعر)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، مصر، ص20.

[31] قدور، أحمد محمد، (2008)، مبادئ اللّسانيات، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ص65.

[32] مرتاض، عبد الجليل، (2000)، اللّغة والتواصل (اقترابات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي)، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص101.

[33] المرجع نفسه، ص120.

[34] العبارة والإشارة، ص26.

[35] الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، (2004)، دلائل الإعجاز، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ص97.

[36] البيان والتبيين، ج1، ص79-80.

[37] المرجع نفسه، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص78.

[38] العبارة والإشارة، ص148.

[39] البيان والتبيين، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص77.

[40] هنداوي، عبد الله محمد سليمان، (1995)، البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية، مكتبة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص9.

[41] المرجع السابق، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص115-116.

[42] العبارة والإشارة، ص146.

[43] الحيوان، ج1، ص48.

[44] معجم الاستشهادات، ص229.

[45] البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية، ص7-8.

[46] البيان والتبيين، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص78.

[47] المرجع نفسه، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص79.

[48] المرجع نفسه، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص78.

[49] العبارة والإشارة، ص147.

[50] البيان والتبيين، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص79.

[51] الأندلسي، علي بن حزم، (2016)، طوق الحمامة في الألفة والألاّف، الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ص43.

[52] المرجع السابق، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص78.

[53] وقد أفاض الدكتور محمد العبد في تفصيل دلالة الإشارة ذي بلاغيًا عند الجاحظ، وَلِمَنْ رامهَا مزيدَ بيانٍ فلينظرها كتابه العبارة والإشارة، في ثُلّةِ الصّفحات: 146-148.

[54] البيان والتبيين، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص80.

[55] أصناف الدلالات على المعاني، ص117.

[56] قبايلي، حميد، (2012)، البيان عند الجاحظ (مقاربة منهجية)، شبكة الفصيح لعلوم اللغة العربية، http://www.alfaseeh.net/vb/showthread.php?t=72365

[57] العبارة والإشارة، ص145.

[58] البيان والتبيين، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص80.

[59] خليل، حلمي، (1998)، الكلمة (دراسة لغوية معجمية)، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ص161.

[60] المرجع السابق، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص81.

[61] البيان عند الجاحظ، http://www.alfaseeh.net/vb/showthread.php?t=72365

[62] البيان والتبيين، ج1، ص79-80. والحيوان، ج1، ص81-82.

[63] البيان عند الجاحظ، http://www.alfaseeh.net/vb/showthread.php?t=72365

[64] العبارة والإشارة، ص146.

[65] أصناف الدلالات على المعاني، ص118.

قائمة المراجع:

المؤلفات:

- أبو موسى، محمد محمد، (2017)، المسكوت عنه في التراث البلاغي، مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
- الأندلسي، علي بن حزم، (2016)، طوق الحمامة في الألفة والألاّف،الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.
- بودوخة، مسعود، (2012)، السياق والدلالة، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1998)، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1965)، الحيوان، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، (2004)، دلائل الإعجاز، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- حجازي، محمود فهمي، (2003)، أسس علم اللّغةالعربية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
- خليل، حلمي، (1998)، الكلمة (دراسة لغوية معجمية)، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر.
- السجلماسي، أبو محمد القاسم، (1980)، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، الناشر مكتبة المعارف، الرباط، المملكة المغربية.
- العبد، محمد، (2007)، العبارة والإشارة (دراسة في نظرية الاتصال)، الناشر مكتبة الآداب، القاهرة، مصر.
– العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، (1952)، كتاب الصّناعتين (الكتابة والشعر)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، مصر.
- القاسمي، علي، (2001)، معجم الاستشهادات، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان.
- قدور، أحمد محمد، (2008)، مبادئ اللّسانيات، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا.
- لوشن، نورالهدى، (2006)، علم الدلالة (دراسة وتطبيق)، المكتب الجامعي الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر.
- مرتاض، عبد الجليل، (2000)، اللّغة والتواصل (اقترابات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي)، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- هنداوي، عبد الله محمد سليمان، (1995)، البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية، مكتبة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

المقالات:

- صافار، إبراهيم عبد السلام، (2016)، أصناف الدلالات على المعاني، مجلة شمالجنوب كلية الآداب جامعة مصراتة، ليبيا، العدد7، 101-122.

مواقع الانترنيت:

- قبايلي، حميد، (2012)،البيان عند الجاحظ (مقاربة منهجية)، شبكة الفصيح لعلوم اللغة العربية، http://www.alfaseeh.net/vb/showthread.php?t=72365